المدائح النبوية في الشعر العربي المعاصر

نوال مطشر عبود

الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي

المقدمة

المدائح النبوية في الشعر العربي المعاصر

ان حبي و ولائي النابع من الوجدان و الفطرة الانسانية السليمة تجاه نبي الرحمة محمد (صل الله عليه و اله) الذي شيد لنا كل معاني الانسانية و السلام و سار بنا الى سبيل الهداية و الرشاد و انطلاقا من ذلك الحب لنبي و امام الرحمة محمد (صل الله عليه و اله) جعلني اعبر عن الحب في اختياري تلك المنظومات الشعرية ني و الاعتبارات في شخص القائد الفذ و حامل الرسالة الكبرى رسالة السماء محمد خير الورى (صل الله عليه و اله) و اخترت كل المنظومات الشعرية الا و هي الشعر العربي المعاصر في مدح القائد الهمام و امام الانس و الجن محمد خير الانام (صل الله عليه و اله) بما تضمنته من اساليب و اعتبارات وافية نابعة من الوجدان و الفطرة السليمة احتوى بحثي على اعتبارات و معاني اصيلة مؤصلة تلك الاعتبارات و المعاني القويمة الحقة المحقة في شخصيته (عليه و على اله افضل الصلاة و السلام) .

و سوف نتناول في هذا البحث ثلاث فصول :

١- الفصل الاول : شعر المديح النبوي في الادب العربي و يتضمن فيه مفهوم المديح النبوي و كذلك ظهور المديح النبوي .

٢- الفصل الثاني : تطور المديح النبوي في الشعر العربي القديم و يتضمن ابرز الشعراء كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة و كعب بن زهير .

٣- الفصل الثالث : شعر المديح في العصر الحديث و يتضمن فيه ابرز الشعراء منهم احمد شوقي و محمود سامي البارودي .

و في نهاية المطاف الشكر و التقدير للأستاذ الدكتور (صدام فهد الاسدي) .

و من الله التوفيق

التمهيد

سيدي رسول الله ...

نأت بنا المسافات و الازمان عن بواكير الصفاء المحمدي الاصيل .. و عن صوتك الذي دوى في شعاب مكة و طرقاتها او في المدينة التي تنورت بحضورك .. و لا نسمع الان غير الاصداء لماض جميل نحن اليه .. كانت امة الشعر و البلاغة ترفع رايات العجز و الخيبة امام بلاغة القران الذي يرتل في مجامعهم و منتدياتهم .. و في الصفحات القادمة سوف نتطرق لعدد من الشعراء فقد كان الشعر العربي قبل الاسلام ينهل من مصدر واحد هو البيئة الجاهلية بأوثانها و عصبيتها و قيمها و بعد ظهور

الاسلام بدأت المزاوجة المعجمية تفرض نفسها و خاصة على الشعراء المخضرمين و في هذا البحث سنتناول المدائح النبوية في الشعر العربي القديم و الشعر الحديث .

الفصل الاول

شعر المديح النبوي في الادب العربي

مفهوم المديح النبوي :

الميح النبوي هو ذلك الشعر الذي ينصب على مدح النبي (صل الله عليه و اله) بتعداد صفاته الخلقية و الخلقية و اظهار الشوق لرؤيته و زيارة قبره و الاماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول (صل الله عليه و اله) مع ذكر معجزاته و نظم سيرته شعرا و الاشادة بغزواته و صفاته المثلى و الصلاة عليع تقديرا و تعظيما .

و يظهر الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر الديني تقصيره في اداء واجباته الدينية و الدنيوية ، و بذكر عيوبه و كثرة ذنوبه في الدنيا ، مناجيا الله بصدق و خوف مستعطفا اياه طالبا منه التوبة و المغفرة .

و ينتقل بعد ذلك الى الرسول محمد (صل الله عليه و اله) طامعا في وساطته و شفاعته يوم القيامة و غالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد التصوف و قصائد المولد النبوي التي تسمى بالمولديات .

و تعرف المدائح النبوية كما يقول الدكتور زكي مبارك بأنها فن[1]

[1] - زكي مبارك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص١٥٩ ، الطبعة الثانية ، تاريخ الادب العربي .

من فنون الشعر التي اذاعها التصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، و باب من الادب الرفيع ، لانها لا تصدر الا عن قلوب مفعمة بالصدق و الاخلاص .

و من المعهود ان هذا المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح الذي يسمى بالمدح التكسبي او مدح التملق الموجه الى السلاطين و الامراء و الوزراء ، و انما هذا المدح الخاص بافضل خلق الا و هو محمد (صل الله عليه و اله) و يتسم بالصدق و المحبة و الوفاء و الاخلاص و التضحية و الانغماس في التجربة العرفانية و العشق الروحاني اللدني .

ظهور المديح النبوي :

ظهر المديح النبوي في المشرق العربي مبكرا مع مولد الرسول (صل الله عليه و اله) ، و اذيع بعد ذلك مع انطلاق الدعوة الاسلامية و شعر الفتوحات الاسلامية الى ان ارتبط بالشعر الصوفي مع ابن الفارض[٢] و الشريف الرضي .

و لكن هذا المديح النبوي لم ينتعش و يزدهر و يترك بصماته الا مع الشعراء المتأخرين و خاصة الشعراء البوصيري في القرن السابع الهجري الذي عارضه كثير من الشعراء

[٢] - تراجع القصيدة في ابن الفارض ، ديوان ابن الفارض ، بيروت ، دار بيروت ، ١٩٨٣ ، ص١٢٨-١٢٩ .

الذين جايلوه او جاءوا بعده ، و لا ننسى في هذا المضمار الشعراء المغاربة و الاندلسيين الذين كان لهم باع كبير في المديح النبوي منذ الدولة المرينية .

و هناك اختلاف بين الباحثين حول نشأة المديح النبوي ، فهناك من يقول بانه ابداع شعري قديم ظهر في المشرق العربي مع الدعوة النبوية و الفتوحات الاسلامية مع حسان بن ثابت و كعب بن زهير و عبد الله بن رواحة[٣]، و هناك من يذهب الى ان هذا المديح فن مستحدث لم يظهر الا في القرن السابع الهجري مع البوصيري و ابن دقيق العبد .

شكلية شخصية النبي محمد (صل الله عليه و اله) منذيات الدعوة الاسلامية محورا هاما للشعر العربي ، اعرق الفنون العربية ، و كانت شخصية الرسول دائما موضوعا اساسيا لاحد اهم الانواع الشعرية العربية ، و هو الشعر الديني الذي يتناول موضوعات مثل الوحدانية و العشق الالهي و مدح النبي و ال بيته ، و اذا كانت بدايات مدح النبي تعود الى اوائل سنوات الهجرة ، فان هذا الفن تطور على يد عدد من الشعراء على مر العصور الاسلامية حتى اصبح اليوم فنا قائما بذاته له خصائصه و طرقه ، و غدا المديح النبوي يشكل احد اهم الفنون في المجتمعات الاسلامية الحديثة .

يقول ابن خلدون (ت سنة ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م) ((ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب لذلك جعلوه ديوان علومهم و اخبارهم))[٤] ، و الشعر هو التعبير الابداعي الاول عن تجربة العرب الانفعالية و الفكرية و الثقافية قبل الاسلام ، و بالتالي

---

[٣] - ديوان عبد الله بن رواحة ، ص٩٨ .

[٤] - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، دار العلم ، ١٩٧٨ ، ص٥٧ .

اصبح الشعر العربي اول الفنون الاسلامية ليس فقط لان العرب شكلوا النواة الاولى للمجتمع الاسلامي و لكن ايضا بسبب الدور الذي لعبه الشعر في بدايات الدعوة الاسلامية ، و في نشر لغة الاسلام و الثقافة العربية الاسلامية في العصور اللاحقة .

تعود بدايات المديح النبوي في الاصل الى الجدال التاريخي الذي نشأ بين شعراء من قريش الذين تجندوا للدفاع عن الزعامة القرشية المناهضة لدعوة الاسلام من جهة ، و النبي محمد (صل الله عليه و اله) و صحابته من جهة ثانية .

فالرسول ما كلن شاعرا و ما قال شعرا ، و لكن الحملات العدائية الشعرية ، و تقديره لتأثير الشعر و الشعراء في المجتمع الجاهلي ، جعلت الرسول يستعين بشعراء المسلمين للرد على حملات اعدائه بسلاح الشعر نفسه .

و من المعروف ان الرسول كان ((يتعهد)) هؤلاء الشعراء ((بالعناة و الرعاية ، فيرفع من مكانتهم و يفضلهم في العطاء ، و ذلك لاهمية الدور الذي كانوا يقومون به في دحض دعوى مشركي مكة و شعرائهم))[٥] ، في هذا السياق تطور فن المديح النبوي في الشعر العربي ، اولا على يد هؤلاء الشعراء الذين دافعوا عن الاسلام و رسوله ، و كان منهم حسان بن ثابت و كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة ، و من النساء ميمونة بنت عبد الله البلوية ،[٦] و لكن لا نعرف اذا قالت شعرا في مدح النبي ، و من اول الذين مدحوا الرسول في شعرهم حسان بن ثابت كان من الشعراء البارزين في الجاهلية ، فلما دخل الاسلام بدأ ينشد شعرا يمدح فيه الرسول و يهجو اعداءه فسمي

[٥] - عبد العزيز صالح الهلالي ، الحياة العلمية و الادبية في عصر الرسول و الخلفاء الراشدون ، ١٩٨٩ ، ص٢ .
[٦] - احمد الشايب ، تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص١١٣ .

لذلك بـ(شاعر الرسول) ، و لكن مقارنة بشعره الجاهلي ، اعتبرشعر حسان الاسلامي اقل ابداعا ، و اكثر ليونة (برأي الاصمعي) ، خاصة انه بعد دخوله الاسلام كان يتقيد بحدود الدين و يتجنب التعبير عن اي نزعة خاصة تتعارض مع العقيدة الاسلامية .

عملت شخصية الرسول و تعاليمه و توجيهاته للشعراء على تثبيت القيم الدينية الجديدة في شعرهم ، اضافة الى المثل الاخلاقية المألوفة من العصر الجاهلي التي اقرها الاسلام في القران و سنة النبي ، فخفت او اختفت لهجة الهجاء و المديح و الفخر القبلي في الشعر الاسلامي الجديد الى حد كبير ، و لكن يبدو ان الشعراء وجدوا في شخصية الرسول و تسامحه و في هدايته الروحية متنفسا جديدا لطاقة المديح المتأصلة فيهم[٧] فاتى مديحهم للنبي تعويضا عن مديحهم في الجاهلية و استمرارا له ، ان لم يكن في منحاه الديني فعلى الاقل في بنائه الفني و الكثير من موضوعاته ، و رغم التحفظ و احيانا الغضب ، الذي كان يبديه الرسول على بعض شعر الاعتذار و المديح بسبب الفخر الذاتي و ضعف الروح الدينية فيه .

الفصل الثاني

تطور المديح النبوي في الشعر العربي القديم

[٧] - الابعاد الاساسية للشخصية ، ص٣٩ .

اول ما ظهر من شعر المديح النبوي ما قاله عبد المطلب ابان ولادة محمد (صل الله عليه و اله) اذ شبه ولادته بالنور و الاشراق الوهاج الذي انار الكون سعادة و حبورا ، اذ يقول عبد المطلب :

و انت لما ولدت اشرقت الارض و ضاءت بنورك الافق

فنحن في ذلك الضياء و في النور و سبل الرشاد نخترق

و تعود اشعار المديح النبوي الى بداية الدعوة الاسلامية مع قصيدة (طلع البدر علينا) و قصائد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم كحسان بن ثابت و يعد بن مالك و عبد الله بن رواحة و كعب بن زهير صاحب اللامية المشهورة [٨] :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[٩] متيم اثرها لم يفد مكبول

و قد استحقت هذه القصيدة المدحية المباركة ان تسمى بالبردة النبوية لان الرسول صلى الله عليه وسلم كسا صاحبها ببردة مطهرة تكريما لكعب بن زهير و تشجيعا للشعر الاسلامي الملتزم الذي يدافع عن الحق و ينصر الاسلام و ينشر الدين الرباني .

و نستحضر قصائد شعرية اخرى في هذا الباب كقصيدة الدالية للاعشى :

الم تعتمض عيناك ليلة ارمدا و عاداك ما عاد السليم المسهدا

---

[٨] -المجموعة النهائية في المدائح النبوية ، ٢٨٣/٢ .
[٩] - ديوان كعب بن زهير ، ص٦ .

و من اهم قصائد حسان بن ثابت في مدح النبي الكريم (صل الله عليه و اله) عينيته المشهورة :

ان الذوائب من فهر و اخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع[١٠]

و لا ننسى همزيته المشهورة في تصوير بسالة المسلمين و مدح الرسول (صل الله عليه و اله) و التي مطلعها[١١] :

عفت ذات الاصابع فالجواء الى عذراء منزلها خلاء

و قد ارتبط مدح النبي (صل الله عليه و اله) بمدح اهل البيت و تعداد مناقب بني هاشم و انباء فاطمة كما وجدنا ذلك عند الفرزدق :

طربت و ما شوقا الى البيض اطرب و لا لعبا مني و ذو الشوق يلعب[١٢]

و يندرج ضمن هذا النوع من المدح تائية الشاعر دعبل التي مدح فيها اهل البيت :

مدارس ايات خلت من تلاوة و منزل حتى مقفر العرصان

و يذهب الشريف الرضي مذهب التصوف في مدح الرسول (صل الله عليه و اله) و ذكر مناقب اهل البيت و خاصة ابناء فاطمة الذين رفعهم الشاعر الى مرتبة كبيرة من التقوى و المجد و السؤدد كما في داليته :

شغل الدموع عن الديار بكاؤنا لبكاء فاطمة على اولادها[١٣]

---

[١٠] - ديوان حسان بن ثابت ، ص٥٧ .
[١١] - ديوان حسا بن ثابت ، ص٤٩ .
[١٢] - تراجع هذه القصيدة في بهاء الدين العاملي ، ص١٧٦-١٧٩ .

و يقول ايضا في لاميته الزهدية المشهورة التي مطلعها :

راحل انت و الليالي تزول و مضر بك البقاء الطويل[١٤]

و لكن يبقى البوصيري الذي عاش في القرن السابع الهجري من اهم شعراء المديح النبوي و من المؤسسين الفعليين للقصيدة المدحية النبوية و القصيدة المولدية كما في قصيدته الميميه الرائعة التي مطلعها :

امن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ام هبت الريح من تلقاء كاظمة و اومض البرق في الظلماء من اثم[١٥]

و من شعراء المديح النبوي المتأخرين الذين عارضوا ميمية البوصيري عبد الله الحموي الذي عاش في القرن التاسع و كان مشهورا بميميته :

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا و قد طاب المقام و زمزم

بردة النبي و تأصيل المديح :

من اهم قصائد المديح النبوي في المرحلة التأسيسية ، من المنظور التاريخي ، هي لامية كعب بن زهير بن ابي سلمى و مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

---

[١٣] - ديوان البوصيري ، ص١٢٦ .
[١٤] - حول شعر بن الفارض يراجع قصيدة ص١٥٢ .
[١٥] - تراجع تاريخ الادب العربي (البوصيري و البردة ... نقطة على السطر) ، ص٦٧٣ .

و هي التي اشتهرت باسم (بانت سعاد) لكنها عرفت ايضا باسم (البردة) لان النبي وهب كعبا بردته حين مدحه بهذه القصيدة ، و تعد من اشهر قصائد الشعر العربي حتى قيل (لا يكاد ناطق بالضاد لا يسمع بها)[١٦] ، و فيما يخص موضوعنا تكتسب (بردة) كعب اهميتها ليس فقط من الظروف التاريخية التي انتجتها ، و لكن ايضا من حيث اصالتها و الاثر الذي تركته في شعر المديح حتى غدت بذاتها تقليدا يتبعه الشعراء موضوعيا و فنيا .

و المعروف ان كعبا كان قد هجا النبي و المسلمين في قصائد لاذعة فاهدر الرسول دمه ، و بعد فتح مكة اتى كعب مجلس الرسول في المدينة تائبا ، معتذرا مسلما ثم انشده قصيدته ، و يقول الرواة انه لما وصل كعب الى قوله :

ان الرسول لنور يستضاء به عفا عنه الرسول (و رمى ببردته على كتفيه هبة منه له)[١٧] و من جملة ما قاله كعب في لاميته[١٨] :

نبئت ان رسول الله اوعدني و العفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي اعطاك نافلة ال قران فيها مواعيظ و تفصيل

لا تأخذني باقوال الوشاة و لم اذنب و لو كثرت في الاقاويل

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

---

[١٦]- مارون عبود ، ادب العرب ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ ، ص١٢٠ .
[١٧] - الكتاب النباتي ، ص٣٠٤ .
[١٨] - ديوان كعب بن زهير ، ص١٥٢ – ١٦٩ .

و نلاحظ ان مديح كعب للنبي استغرق ابياتا قليلة من القصيدة و كان واحدا من جملة مواضيع عالجها الشاعر ، فقد استهل الشاعر قصيدته بمطلع غزل على عادة شعراء العصر (ثلاثة عشر بيتا) ثم انتقل الى وصف الناقة الذي شغ المساحة الشعرية الاكبر في القصيدة (و احد و عشرين بيتا) ، و بعدها تخلص الى المديح (اربع ابيات) ، و اخيرا مدح النبي بثلاثة عشر بيتا و المهاجرين القرشيين (دون الانصار) بسبعة ابيات ، و ما يلفت النظر طبعا ليس فقط صغر المساحة التي يشغلها مديح النبي ، و هو الغرض الذي ن اجله انشئت القصيدة ، و لكن ايضا قلة الاشارات للرسالة الجديدة ، ففي القصيدة على طولها عبارات محدودة مثل (رسول الله ، اسلموا) .

لا شك ان هذه الاشارات على قلتها ، نظرا لقرب العهد بالاسلام و لجدة اسلام كعب بالذات ، في غاية الاهمية اذا اعتبرناها من المنظور التاريخي و الاجتماعي فهي و ان دلت على سطحية معرفة الشاعر بالإسلام ، انما تدل ايضا على النظرة التي كانت سائدة يومها الى النبي ، كانسان ميزه الله فجعله رسوله حاملا نور هدايته لعصبته (لأهله و هنا قريش) .

و لهذا اقتصر مديح الشاعر على الصفات المعهودة للنبي ، و هي صفاته الانسانية و الرسولية ، و لم يتعداها الى اضفاء او ابتداع صفات اخرى جديدة كالصفات الروحانية القدسية التي اضفاها عليه المداحون في العصور اللاحقة ، رغم انها قبلت في مديح النبي و بعد ان اعلن الشاعر اسلامه ، الا ان (بردة كعب)[١٩] تبقى قصيدة (جاهلية)

[١٩] - مقدمة الشعر العربي ، ١٩٧٩ ، ص٣٢ .

من حيث التقليد و الاتباعية ، و طبيعة ثناءها الشعري ، و من حيث حركاتها الداخلية و ايقاعها الغنائي ، و غناها بالتشابيه و الصر المادية (مثلا تشبيه النبي بالأسد) ، و لكن اهم ما يميز (بانت سعاد) عن سائر شعر المديح عامة ، و المديح النبوي خاصة الذي سبقها على قلته او الذي قيل من بعدها ، هو ذلك الارتباط العضوي بين القصيدة و قصة شاعرها من جهة ، و الدلالة التاريخية للقصيدة من جهة اخرى .

فالقصيدة تجلو لنا طرفا من اخلاق النبي و تضعنا في اجواء العصر الذي عاش فيه كل من المادح و الممدوح ، بلجوئه اليه فقط تأكد للشاعر ان النبي حليم ، واسع الرحمة و كريم و بمدحه ايه خير استعداده للاستماع اليه بصدر رحب و قبوله في عداد المسلمين رغم الاساءة التي سبق للشاعر ان بادره بها .

و فوق هذا كله تبين له بحق كرم النبي و جوده بقول ادونيس عن القصيدة الجاهلية انها ((شعر ممتزج بقدرة الانسان و مصيره و ايامه و اشياءه الاليفة ، شعر شخصي لكنه لجميع الاشخاص))[٢٠] ، و لا تخرج قصيدة كعب عن هذا المفهوم ، و لكن هذا لا يفقدها قيمتها الفنية و التاريخية كقصيدة مخضرمة لانها مع جاهليتها من الناحية الفنية تبقى اكثر شعر المديح النبوي اصالة و استمرارية ، ليس لنوعية او حجم المديح و المداحين منذ حوالي اربعة عشر قرنا ، اعجب النبي بالمديح فلم يكتف بمنح مادحه حياة زمنية جديدة ، بل وهبه بركة لما بعد ذلك عندما القى عليه بردته ، مع كل ما ترمز اليه

[٢٠] - ادونيس (علي احمد سعد) ، مقدمة للشعر العربي ، بيروت ، دار العودة .

(بردة النبي)في المجالين الديني و الدنيوي[٢١] ، و برأيي ان ارتباط (بانت سعاد) بالبردة النبوية هو الذي اعطى هذه القصيدة قيمتها و جعلها تقليدا شعريا استمر في فن المديح النبوي منذ ذلك التاريخ على الاقل في قصيدتين مدحيتين مشهورتين حملتا نفس الاسم (بردة البوصيري) و (نهج البردة) لشوقي .

البردة بين كعب و البوصيري :

(بردة البوصيري) نظمها الشاعر محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري (ت في الاسكندرية بين ٦٩٤- ٦٩٦هـ / ١٢٤٩- ١٢٩٧م) تحت عنوان (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) ، و لا شك انها اهم القصائد التي استوحت قصيدة كعب ، او ربما " جو " القصيدة ، اذ لم نرد القول انها محاكاة لـ (بردة كعب) و (تجربة مستنبطة) عنها .

و قد علب اسم (البردة) على قصيدة البوصيري بالذات لتمييزها عن قصيدة كعب التي اشتهرت اكثر باسم (بانت سعاد) .

كان البوصيري واحدا من اهم المتصوفة المصريين في عصره[٢٢] ، و اشتهر بكونه خطاطا احترف النسخ و فقيها عالما بالحديث و قارئا مجيدا للقرآن الكريم ، و اعتقد ان لتجويده القران علاقة وثيقة بإنشاد قصائده المدحية ، خاصة البردة التي كأنما كتبت من

---

[٢١] - تقول بعض الروايات ان معاوية بن ابي سفيان بعد ان تولى الخلافة بذل الاف الدراهم لشراء البردة و ما كان له ذلك الا بعد وفاة كعب فاشتراها من اهله بمبلغ ضخم و توارثها الخلفاء من بعده ، و هي البردة التي كانوا يلبسونها في العيدين ، طه حسين ، من تاريخ الادب العربي .

[٢٢] - موسوعة الدراسات الاسلامية و دراسة تريمنتها م بعنوان الطرق الصوفية في الاسلام .

اجل الانشاد [٢٣] ، لكن اسمه ارتبط بالشعر و بشكل خاص بالمديح النبوي حتى اعتبر (من الشعراء الذين مثلوا تطورا بارزا في الاتجاه الديني) ضمن الحركة الادبية و الفكرية التي نشطت في عهد المماليك في مصر و الشام ، و عهد التتر – المغول – في العراق منذ اواسط القرن الثالث عشر الميلادي .

لاشك انه مهما اختلفت وجهات النظر الى قصة (البردة) البوصيرية - من ناحية التشكيك او الصدق على عكس قصة (البردة الاصلية) لكعب – فانه لا يمكن البحث في موضوع المديح النبوي في الشعر و الغناء العربي في العصر الحديث دون اعتبار مكانة البوصيري و قصيدة (البردة) بالذات .

في دراسة موسعة عن بدايات المديح النبوي ، اسلوبه و غايته ، صيغت (بردة البوصيري) على وزن و قافية و روي قصيدة (هل نار ليلى بدت ليلا) للشاعر الصوفي المشهور عمر بن الفارض (ت في القاهرة سنة ٦٣٢هـ /١٢٣٤م).

و مما قاله البوصيري في مدح الرسول :

محمد سيد الكونين و الثقلين و الفريقين من عرب و من عجم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الاهوال مقتحم

فاق النبيين في خلق و في خلق و لم يدانوه في علم و لا كرم

و كلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر او رشفا من اليم

---

[٢٣] - مقالة بعنوان (الشيخ العطواي – من اجله كتب البوصيري البردة) .

الفصل الثالث

شعر المديح في العصر الحديث

فهو الذي تم معناه و صورته ثم اصطفاه حبيبا باريء النسم

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحزن فيه غير مقتسم

فمبلغ العلم فيه انه بشر و انه خير خلق الله كلهم

كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية و التأديب في اليتم[٢٤]

و في قصيدته يشيد البوصيري بصفات الرسول و شمائله الخلقية (المدح المباشر) و يتغنى بمولد النبي و معجزاته و منها هداية القران ، و اسراءه و معراجه و جهاده ،ثم يتوسل الى النبي و يتشفع ، و يختتم قصيدته بالمناجاة و التضرع و عرض الحاجات و الصلاة على النبي في (قراءة ثانية) لبردة البوصيري للكشف عما فيها من الابعاد الصوفية ، و من مع ان البوصيري يذهب في اعتقاده بمثالية النبي و بتمام (معناه و صورته) . او كماله الى حد القول انه اول الخلائق ، بل انه السبب و الغاية من الخلق الكوني كما قال بعض الصوفية و ان النبي محمد هو النور الالهي و هو نور الانوار و

[٢٤] - تراجع دراسة سامر عكاش القيمة ، ٢٠٠٥م ، ص٩٣-٩٤ .

هي المسألة التي عبر عنها سهل التستري (ت سنة ٨٢٣هـ / ٨٩٦ م) بفكرة (النور المحمدي)[٢٥] .

في اطار البحث عن تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، يجد علي عباس علوان ان مديح و مراثي ال البيت شكل من مديح النبي و الشعر الصوفي اتجاها رئيسيا في شعر القرن التاسع عشر ، و فيما كانوا معظم الذين مدحوا الرسول من السنة ، اختص الشعراء الشيعة بمدح ال البيت ، و منهم عبد الباقي العمري الذي حظي باهتمام مميز و مكانة عالية بعد ان نشر مجموعة من قصائده في مدح ال البيت سماها (الباقيات الصالحات) ركز فيها على تصوير مقاتل ال البيت و نكباتهم .

و يبدو ان الشعراء وجدوا في استشهاد الحسين خاصة و نكبات ال البيت عامة متنفسا لهم عن سوء الاوضاع في العراق في ظل الحكم العثماني في اواخر القرن التاسع عشر ، فعمرت ال البيت على منابر العزاء[٢٦] ، و من اهم قصائد المديح النبوي لكبار شعراء مصر في هذه الفترة قصيدة محمود سامي البارودي (١٨٤٠- ١٩٠٥م) (كشف الغمة بمديح سيد الامة) و مطلعها :

يا دارة البرق يم دارة العلم واحد الغمام الى حي بذي سلم

و هي قصيدة طويلة جدا في (٧٤٤) بيتا على وزن و قافية و روي بردة البوصيري و ان لم تكن معارضة لها تماما ، و يعتبر البارودي (اول المددين في الشعر العربي

---

[٢٥] -

[٢٦] - علي عباس علوان ، تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، ص ٣٤-٣٦ .

الحديث) من حيث التعبير الصادق عن التجربة الانفعالية المعاصرة ، و بتطور الحركة الشعرية في القرن العشرين ، اصبح مديح النبي و ال البيت بابا يطرقه الشعراء في مناسبات معينة الى جانب مواضيع دينية و اجتماعية و سياسية اخرى شغلت بالهم .

و بتأثير من ثقافتهم التراثية ، الشعرية و الدينية استوحوا في معالجتهم لهذه القضايا العامة تعاليم القران و سيرة الرسول و مأثر ال البيت ففي (ملحمة) شعرية صغير بعنوان (ثورة في الجحيم) مثلا ، يثير الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ – ١٩٣٦م) فكرة العدل الالهي و الحب الذي يحول كل ما يلمسه جمالا في الدنيا و الاخرة ، فجاء وصفه للجنة مطابقا لصورة الجنة في القران[٢٧] .

اذا قرأنا المديح النبوي من المنظور الواقعي ، كون الشعر تعبيرا عن موقف انفعالي و فكري بواقع اجتماعي و سياسي و ثقافي لا يمكن فصل مديح الرصافي ، و سائر شعره ، تربيته الدينية و التزامه بالتوصف لعدة سنوات في مطلع شبابه قبل انصرافه الى العمل السياسي الشعرية و امتدادها من الكونيات و الفلسفيات ، الى التاريخيات و السياسيات و النسائيات (و هذه في الدفاع عن حقوق المرأة) ، مرورا بالاجتماعيات التي ادرجت فيها قصيدته (في حفلة المولد النبوي) (٤٤ بيتا) و التي استهلها بـ :

وضح الحق و استقام السبيل بعظيم هو النبي الرسول [٢٨]

[٢٧] - المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ١٩٨٠م ، ص٢٤١ – ٢٤٩ ، امين الريحاني .
[٢٨] - ديوان الرصافي ، المجلد الاول ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٦ ، ص٤٩٠- ٤٩٦ .

اما قصيدة بدر شاكر السياب (مولد المختار) المتأخرة زمنيا (حوالي سنة ١٩٦١) و مطلعها :

دموع اليتامى في دجى الليل تقطر و نوح الثكالى عاصف فيه يصفر [٢٩]

ففيها اشارات الى نكبة (فلسطين المدماة) و فيها يرجو الشاعر ان يكون مولد (نبي الهدى) و (نفحة الله) و (خير ما جاد الزمان) الموعد المنتظر لـ (ميلاد امة و ميعاد بعث) مقدر :

و لكن من ينجده طه فقد نجا

و من يهده- و الله – هيهات يخسر

و الواقع ان شعراء اخرين غير السياب من اصحاب الرؤيا الجديدة في الشعر العربي عمدوا الى تجريب رؤاهم الفكرية و الفنية في المديح النبوي .

من التجارب التي سبقت السياب زمنيا قصيدة (اشواق الحجاز) للشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان (نابلس – فلسطين ١٩٠٥ – ١٩٤١م) فيها يبث حبه للنبي و اشواقه لاماكن الحضرة النبوية [٣٠] ، كان طوقان شاعرا مجددا فكريا و بيانيا ، و له قصيدة مشهورة عارض فيها شوقي ، الا ان قصيدته (اشواق الحجاز) بعيدة كل البعد عن شعر شوقي .

---

[٢٩] - تراجع قصيدة (مولد المختار) في ديوان بدر شاكر السياب ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص٥٧٣ – ٥٨١ .

[٣٠] - نبذة سريعة عن ابراهيم طوقان و قصيدته يراجع احمد ابو زيد (ابراهيم طوقان .. شاعر فلسطين) ص٧٨ – ٨١ .

احمد شوقي : امير شعراء المديح النبوي الحديث كان شوقي مع الجواهري ، من الشعراء المميزين اللذين وصفوا بانهم (حالات خاصة : تتمادى في نتائجهم ، بشكل او اخر الطرق الشعرية القديمة نظرا و تعبيرا ، الا انهم في مستوى القدماء صناعة و تمكنا .[٣١]

و شعر شوقي في مديح شوقي في مديح النبي يدخل في هذا الاطار من ناحية احياء القديم مع الحرص على الجمالية و الابداعية الشعرية .

نظم شوقي اكثر من قصيدة في مدح النبي و الاسلام و المسلمين ، و ليس هذا غريبا صحيح انه كان لفترة (شاعر الامير) قبل ان يكون (امير الشعراء) الا ان ارتباطه بالقضايا الانسانية كان وثيقا ، حتى قيل بحق انه ا المت خلال حياته بمصر او اي بلد من بلدان العرب و الشرق محنة ، او انبثقت نهضة ، او انتفض شعب ، الا اهتزت نفسه و اهتاجت شاعريته .[٣٢]

مدح شوقي النبي محمد (صل الله عليه و اله) في قصائد مطولة اهمها (نهج البردة) (١٩٠ بيتا) التي استهلها :

احل سفك دمي في الاشهر الحرمي

و (ذكر المولد) (سنة ١٩١٤ ، ٧١ بيتا) مطلعها :

سلوا قلبي هل غدا سلا و ثابا لعل على الجمال له عتابا

---

[٣١] - ادونيس ، مقدمة للشعر العربي ، ص٩٦ .
[٣٢] - حسين مروة ، عناوين جديدة لوجوه قديمة في تراثنا الادبي و الفكري ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص١٨٢ .

و الهمزية النبوية (١٣١ بيتا) و مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء و فم الزمان تبسم و ثناء[٣٣]

في المدحية الاخيرة و ان لم يشتهر بذلك ، سار شوقي (فكرا او بناء في الوزن و القافية و الروي) على نهج (همزية) البوصيري المساماة بـ (ام القرى) التي مطلعها

كيف ترقى في رقيك الانبياء يا سماء ما طاولتها سماء

و من المعروف انه و في (نهج البردة) حاكى شوقي بردة البوصيري و لم يدع معارضها ، و ان كان سعى للتبرك بها كما فعل سابقوه ، و قد نظمها و هو في مطلع شبابه على وزن البردة و قافيتها و رويها ، و قدمها للخديوي عباس الثاني تذكارا للأخير سنة ١٢٢٧هـ / ١٩١٠م .

و الى كمال الصفات النبوية ، يشير شوقي الى الصفات الانسانية في شخصية محمد الذي كملته العناية الربانية ، فهو الكريم الذي بلغ المدى جوده ، و هو القادر الذي لا يستهان بعفوه لانه مقدر من الله ، و هو الرحيم رحمة الوالدين في الدنيا ، غضبته عن حق بلا بغضاء ، و رضاه صادق بلا رياء لان غضبه و رضاه من الله .

هو الخطيب الذي تهز المنابر و تبكي القلوب فصاحته ، و هو الذي يقضي بحكم السماء فلا يجد الخصوم في قضاءه حرجا و لا ارتيابا ، و هو الذي يحفظ العهود ذمة و وفاء يتناول شوقي شخصية النبي من كافة جوانبها ، فمحمد في شعره صاحب الشخصية

[٣٣] - تراجع هذه القصائد في احمد شوقي ، الشوقيات ، مع مقدرة محمد حسين ، ١٩٨٨ ، ص٣٤ – ٤١ -٦٨ .

الانسانية الكاملة ، و هو الرسول – الانسان الكامل الذي بعثه الله باسمى و اخر رسالة سماوية لهداية الانسان و خير البشرية جمعا و لا يخفى ما في هذا من شبه بافكار البوصيري .

الا ان البعض (الدكتور احمد كمال زكي مثلا) يؤكد ان شوقي و ان كان قد رفع النبي عن مستوى الادمية العادية ، فانه فعل ذلك (دون تأليه و دون افتئات على ذات الباري و دون تقديس)[٣٤] .

محمد صفوة الباري و رحمته و بقية الله من خلق و من نسم

مشيئة الخالق الباري و صنعته و قدرة الله فوق الشك و التهم

حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح و لا يسعى على قدم

و قيل كل نبي عند رتبته و يا احمد هذا العرش فاستلم

خططت للدين و الدنيا علومهما يا قاريء اللوح ، بل يا لامس القلم

احطت بينهما بالسر و انكشفت لك الخزائن من علم و من حكم[٣٥]

في (نهج البردة) ما يؤكد وجهة نظري من ان الشعراء الذين قلدوا (بردة البوصيري) في مدح النبي انما فعلوا ذلك من باب التبرك لها ، فها هو شوقي يبرر الدافع الى

---

[٣٤] - ورد رأي الدكتور احمد كمال زكي ، اثر القران في الشعر العربي الحديث ، دمش ، دار المعرفة ، ١٩٨٧م ، ص١٧٥ .
[٣٥] - ديوان احمد شوقي ص ٢٨ – ٢١١ ، الاسلام في شعر شوقي .

التقليد صدق مشاعره التي املتها (البردة الفيحاء) و الرجاء في بلوغ بعض الغبطة التي بلغها صاحب البردة ولي الرسول :

يأحمد الخير لي جاه بتسميتي و كيف لابتسامي بالرسول سمي؟

اطارحون و ارباب الهدى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

مديحه فيك حب خالص و هوى و صادق الحب يعلي صادق الكلم

الله يشهد اني لا اعارضه من ذا يعارض صوب العارض العلم

و انما انا بعض الغابطين و من يغبط وليك لا يذمم و لا يلم

و اذا كان هذا هو الدافع الى المديح عند شوقي فغايته كذلك كغاية البوصيري هي الشفاعة و التوسل ، و لكن بمقابل انانية البوصيري في تشفعه لنفسه تأتي (شمولية) شوقي الذي يتعدى توسله الذات ليشمل جميع المسلمين ، فيختتم (بردته) بمناجاة الله ان يتكرم بحكمه على المسلمين و يلطف بهم من اجل الرسول الذي احسن البدء اليه و يتمم الفضل بمنحهم حسن مختتم ، ربما لهذا وصف الدكتور محمد حسين هيكل اختتام شوقي لقصيدته (حسن الختام) [٣٦] :

يا رب هبت شعوب من منيتها و استيقظت امم من رقدة العرم

و لا تزد قومه خسفا و لا تسم

---

[٣٦] - تعليق محمد حسين هيكل ، ص٢٠٨ ، (نهج البردة) في الشوقيات .

يا رب احسنت بدء المسلمين به

فتمم الفضل و امنح حسن مختتم

الخاتمة

يتضح مما سبق ذكره – ان شعر المديح شعر صادق بعيد عن التزلف و التكسب ، يجمع بين الدلالة الحرفية الحسية و الدلالة الصوفية الروحانية ، كما يندرج هذا الشعر ضمن الرؤية الدينية الاسلامية ، و على الرغم من ذلك فقد استطاع بعض الشعراء ان يتفوقوا في شعر المديح النبوي كمحمود سامي البارودي و احمد شوقي و الشاعر المغربي مالك بن المرحل كما في ميميته المشهورة .

و عليه فالمديح النبوي شعر ديني يركز على سيرة النبي (صل الله عليه و اله) و فضائله النيرة ، و قد رافق هذا الشعر مولده و هجرته و دعوته ، كما واكب فتوحاته و حب ال البيت فانصهر في شعر التصوف ليصبح فنا مستقلا مع البوصيري و ابن دقيق العبد ، و في العصر الحديث ، ارتبط هذا الشعر بالمناسبات الدينية و عيد المولد النبوي ، و في نفس الوقت خضع لمنطق لمعارضته المباشرة و غير المباشرة ، و بفضل البعد الزماني و المكاني حدث تحول في المديح النبوي فكرا و فنا ، تبعا لانفعال الذات الشاعرة و تفاعلها مع الواقع الذي تحركت فيه و مع ذلك حافظ المديح في اكثره على الاسلوب الذي وضع اصوله المداحون الاوائل ، فاعتمد معظم الشعر القديم و الجديد (

العمودية الشعرية) باستثناءات قليلة مثل قصيدة ابراهيم طوقان ربما لانه وضعها للانشاد في اذاعة فلسطين في ثلاثينيات القرن الماضي ، و لكن رغم التحولات بقي مدح النبي وسيلة لغاية اختلفت باختلاف التجربة الانفعالية الشعرية ، فالمديح ما كان يوما مجردا عن غاية التوسل و الشفاعة سواء القديم منه او الحديث التقليدي او الجديد ، و لكن تبعا للتجربة الشعرية تراوحت الغاية بين الذاتية و (الانانية) التوسل من اجل (الانا) تقريبا كل الشعراء بدءا بكعب و البوصيري) و الاخروية الشاملة او طلب الشفاعة للذات و للاخرين معا (شوقي و السياب) فسعى بعض الشعراء الى كسب رضا النبي (صل الله عليه و اله) في الحياة الدنيا ، (كعب و البوصيري و الرصافي مثلا) .

المصادر و المراجع

١- الاية لكريمة ، سورة الفتح ، اية ٢٨ .

٢- انطون غطاس كرم ، في الادب العربي الحديث و المعاصر ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص١٦٩ .

٣- ادونيس ، زمن الشعر ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٥ ، ص٩ .

٤- جميل حمداوي ، شعر المديح النبوي في الادب العربي ، ص٢٦- ٧٩ .

٥- حسين مروة ، عناوين جديدة لوجوه قديمة ، ص١٨٥ .

٦- دراسة بعنوان (بدايات المديح النبوي) اسلوبه و غايته .

٧- شعر حسان ، احسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب : نقد الشعر من القرن الثاني ، دار الثقافة ، ١٩٨١ ، ص٤٩ .

٨- عبد العزيز صالح الهلالي (الحياة العلمية و الادبية في عهد الرسول و الخلفاء الراشدين) في الجزيرة العربية في عصر الرسول و الخلفاء الراشدين المحرر الطيب الانصاري ، الكتاب الثالث ، الجزء الثاني ، ١٩٨٩ ، ص٢٠ .

٩- فاروق شوشة ، ترنيمة عمر بن الفارض ، العربي ، ٢٠٠٦م ، ص١٦٦ .

١٠- مارون عبود ، ادب العرب ، ص٤٩٥ .

١١- مقالة وليد الخالدي في موسوعة الدراسات الاسلامية ، ص١٧٦ .

١٢- موسوعة الدراسات الاسلامية ، ١٩٩٨ ، ص٤٤-٤٥ .

محتويات البحث

١- الشكر و التقدير .
٢- الاهداء
٣- المقدمة
٤- التمهيد
٥- الفصل الاول : شعر المديح النبوي في الادب العربي
٦- ظهور المديح النبوي
٧- الفصل الثاني : تطور المديح النبوي في الشعر العربي القديم
٨- بردة النبي و تأصيل المديح
٩- البردة بين كعب و البوصيري
١٠- الفصل الثالث : شعر المديح في العصر الحديث
١١- احمد شوقي : امير الشعراء المديح النبوي الحديث
١٢- الخاتمة
١٣- المصادر و المراجع
١٤- محتويات البحث